# الرثاء في كتاب "مطمح الأنفس ومسرح التَّأنس في ملح أهل الأندلس " للفتح بن خاقان

إعـــداد

أ. جهاد عبد الحميد أحمد

**تمهيد:**

يُعد كتاب "مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس " لأبى نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، الشهير بابن خاقان (ت ٥٢٩) ، واحدًا من أهم المصادر في الأدب والتاريخ الأندلسيين

وقد جمع ابن خاقان فيه من شعراء العرب طائفة كثيرة ، وتكلم على ترجمة كل واحد منهم بأعذب عبارة ، ويشتمل على محاسن أعلام العلماء ، وأعيان القضاة والفقهاء وهو مالم يذكره الفتح في قلائد العقيان

والكتاب بجانب كتاب القلائد العقيان والذخيرة لابن بسام مصادر أساسية ينقل عنها ويعتمدهما من جاء بعدهما من المصنفين .

والكتاب بالإضافة انه يعكس تيار الحياة الاجتماعية الأندلسية على نحو واضح ، له مكانة تاريخية وأدبية ، فقد ذكر فيه ابن خاقان محاسن الأدباء والعلماء والقضاة والوزراء وأشعارهم وان كانت مكانة الكتاب من الناحية الأدبية أعظم وأهم . وهذا ما سوف تركز عليه الدراسة . الجانب الأدبي ، ودراسة القصيدة الغزلية دراسة فنية باعتبارها أداه من أدوات السرد الأدبي.

"**الرثاء**"

يأتي الرثاء في مقدمة الموضوعات الشعرية الصغرى في كتاب مطمح الأنفس، حيث بلغ عدد أبياته ثلاثة وثمانين بيتا (٨٣بيتا)، بنسبة ٧,٣٧ % من أجمالي الأبيات.

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان النساء والرجال جميعًا يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مثنيين على خصالهم، فهو يمثل صور راقية، إذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم، والإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قِبل الموتى، ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم، مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه، وعبثه بهم ولعبة بحياتهم وموتهم[١]

فهو كالمرآه التي عكست الجوانب الروحية والنفسية والاجتماعية والمادية التي كانت تسود في المجتمع الأندلسي, ونجد هذا واضحًا في كتاب مطمح الأنفس، فقد رثى الشعراء فيه أنفسهم، ورثاء المدن والممالك الزائلة بالإضافة الى الرثاء الخاص والرسمَّي ولقد عبروا عن مدى صدقهم وصدق التجربة الشعرية لديهم.

كما "يعد فن الرثاء من أهم الفنون الشعرية التى طرقها الشعراء منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، وهو فن وجداني يدعو اليه الموقف، وتناديه العاطفة، ويستجيب للمشاعر، ومن ثم فقد ابتعد عن الرياء، وتناءى عن النفاق"[٢]

وبقسم الرثاء في كتاب مطمح الأنفس إلى:

١- رثاء خاص
٢- رثاء رسمي
٣- رثاء النفس

---

[١] الدكتور شوقي ضيف الرثاء، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص ٧.

[٢] الدكتور محمد دياب، شعر الطليق المرواني، الدار الثقافية للنشر، ٢٠١٧، القاهرة، ص ٥٢.

**أولا: الرثاء الخاص:**

هو رثاء المقربين من الأصدقاء والأهل والأبناء، يتحدث فيه الشاعر عن مشاعر الأسى والحزن والحرمان والفقد، ويبين أثر الفراق والرحيل عليه، ونجد بعض الشعراء أثناء رثائه من يقر بحتمية الموت وفرضه على كل انسان، كما يبين أثر وقع خبر الموت عليه كالصاعقة "

وذلك لأنه" يختص بمن فقد الأهل والأصدقاء ونرى فيه صدقا في العاطفة، ونغمة من المرارة والأسى، ويغلب عليه الطابع المأساوي المرير، لأنه يصدر عن أغوار النفس البشرية، ويعبر عن اللوعة والحسرة التي تنتابها عند فقد من أحببت ولا يملك الشاعر أزاء هذه العاطفة الحارة الحزينة الملتاعة ألا أن يصدح في شعره بأجزائه "[١]

لأن هذه العاطفة نابعة عن صدق التجربة الذاتية للشاعر، حيث نجد مشاعر الحزن متجددة ومهيمنة عليه، حيث أن من خصاصه صدق العاطفة، وصدق التجربة الذاتية للشاعر، حيث تتجدد الدموع ومشاعر الحزن وهيمنت مشاعر الألم عليه، حتى وأن كانت التجربة لشخص لقريب منه.

حيث أنه رثاء الأفراد المقربين من الشاعر ومن ألوانه " العزاء وهو في أصله الصبر على الموت على الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء اليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل أنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء وخاصة من أخذ ولاحظ من الفلسفة إلى التفكير في حقائق الحياة والموت والوجود والعدم"[٢]

ونجد انه قد قل رثاء الخاص لدى شعراء كتاب مطمح الأنفس، واذا رثوا وجدنا تأثر الشعراء الأندلسيين بشعراء المشرق، في بدء قصيدة الرثاء بالحديث عن مشاعر الحزن والألم والفقد والحرمان، ثم الدخول في الرثاء، ومدح صفاته الحسنة.

---

[١] د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم: شعر الرثاء العربي واستنهاض الهمم، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٢ م، ص ٧.

[٢] د. شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والأمارات، ط ٦، ٢٠١٧ م، دار المعارف، القاهرة، ص ٣٣١.

ونجد أن " قصيدة الرثاء الأندلسية جرت على نهج المشارقة في المبني والمعنى، فافتتحت بالتعبير عن معاني الأسى والفقد ثم نعى الميت، وختمت بنفس المعاني، وما بين المقدمة والنهاية، تحدث الشعراء عن مناقب الميت فمدحوا فيه كرمه وشجاعته وعلمه وعدله وهكذا"[١].

وذلك في قول الشاعر أبي القاسم المنيشي[٢] يرثي والدة الفتح:

يَـــا ذَا الْـــوِزَارَةِ مِـــنْ مَثْنَّـــى وَوَاحِـــدَةٍ ... لِلَّهِ مَـــا اصْـــطَنَعَتْ مِنْـــكَ الْـــوِزَارَاتُ

لِلَّهِ مِنْـــكَ أَبَـــا نَصْـــرٍ أَخُـــو جَلَـــدٍ ... إِذَا أَلَمَّـــــتْ مُلِمَّـــــاتٌ مُهِمَّـــــاتُ[٣]

أَسْـــتَوْدِعُ اللَّهَ نُـــورًا ضَـــمَّهُ كَفَـــنٌ ... كَمَـــا تُـــوَارِي بُـــدُورَ الـــتَّمِّ هَـــالَاتُ[٤]

قَضَـــتْ وَلَيْـــتَ شَـــبَابِي كَـــانَ مَوْضِـــعَهَا ... هَيْهَـــاتَ لَـــوْ قُضِـــيَتْ تِلْـــكَ اللُّبَانَـــاتُ

مَضَـــتْ وَلَـــيْسَ لَكُـــمْ مِـــنْ دُونِهَـــا أَحَـــدٌ ... هَـــلَّا وَقَـــدْ أَعْـــذَرَتْ فِيهَـــا الْمُـــرُوءَاتُ[٥]

---

[١] د.على الغريب محمد الشناوي: القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقه، ط ١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٩١.

[٢] أبو القاسم ابن أبي طالب الحضرمي المنيشي الإشبيلي المعروف بعصى الأعمى: شاعر أندلسي من أصدقاء ابن بسام صاحب الذخيرة، ذكره عرضا في ترجمة ابن الآبار الإشبيلي وأورد له قطعتين من شعره وافتتح به ابن سعيد في كتابه "المغرب" ما سماه "كتاب ورق العريش في حلى قرية منيش" من قرى إشبيلية، قال منها على ما ذكره الحجاري: أبو القاسم بن أبى طالب الحضرمي المنيشي المعروف بعصا الأعمى التطليلي، وقال في وصفه ابن الأمام: أحد الأفراد، ورأس الجهابذة النقاد، ثم اورد ثلاثة قطع من شعره.

[٣] مهمات: مفرد مهمة: المهمات من الأمور: الشدائد المحرقة.

[٤] هالات: مفرد هالة، دارة القمر أو دارة الضوء وتحيط نجوم بسماوي

[٥] مطمح الأنفس، ص ٢١.

يستفتح الشاعر قصيدته بأسلوب نداء (يا ذا الوزارة)، للمدح والتعظيم، فهو يمدح الفتح بن خاقان الوزير لبلاغته ومهارته في الوزارة حتى افاد منه الوزارات لإتقانه عمله، ثم يشرع في تعزيته في البيت الثاني واصفا صبره على المكروه والداء التي ألم به وهو فقدانه لوالدته، تلك النازلة الشديدة والمصيبة التي ألمت به، فقدم له خالص العزاء مستودعها عند الله، كما شبه لنا الشاعر والدة الفتح بالنور الذي اختطفه الموت ورحلت تحت التراب واختفت كما يختفي القمر عند تمامه، واستخدم الشاعر الفعل (قضت) للدلالة على ان الموت لا رجع فيه، كما تمني الشاعر ان يموت بدلا منها، فهي قد رحلت ورفع عنها اللوم لما تحمله من صفات نفيسة وأخلاق حميدة.

كما يعارضه الشاعر أبي حسن بن لسان قائلا:

**عَلَى مِثْلِهِ مِنْ مُصَابٍ وَجَبْ عَلَى مَنْ أُصِيبَ بِهِ الْمُنْتَحِبْ**

**فَقَدْ خَشَعَتْ لِلتُّقَى هَضْبَةٌ ذَوَائِبُهَا فِي صَمِيمِ الْعَرَبْ**

**مِنَ الْقَائِمَاتِ بِظِلِّ الدُّجَى وَلَا مَنْ تُسَامِرُ إِلَّا الشُّهُبْ**

**فَكَمْ رَكْعَةٍ أَثَّرَهَا فِي الدُّجَى تُنَاجِي بِهَا رَبَّهَا مِنْ كَثَبْ**

**وَقَدْ خَلَّفَتْ وَلَدًا بَاسِلًا فَصِيحًا إِذَا مَا قَرَا أَوْ خَطَبْ**

**تُفَلُّ السُّيُوفُ بِأَقْلَامِهِ وَيَكْسِرُ صُمَّ الْقَنَا بِالْقَصَبْ**[1]

[1] مطمح الأنفس، ص ٢١

يصف الشاعر الفقيدة بالتقوى والايمان وعراقة الأصل، وأنها تركت ولدا بليغا فصيحا تترك كلماته الأثر الذي تعجز عن وصفه السيوف والقنا، فيبدأ الشاعر قصيدته بالجار والمجرور (على مثله) للتخصيص، أي تخصيص الشدة والبلاء النازل على الفتح لفقدانه والدته، ويشيد بالأعمال الصالحة لوالدته، ويذكرها بالركعات والصلوات التي كانت تناجي بها ربها في الظلام، وأنها صاحبة الفضل خلفت ولدا باسلا شجاعا، فصيحا، بخطبه تفل له السيوف.

ويعد رثاء الأصدقاء نوع من أنواع الرثاء الخاص، وفيه يتحدث الشاعر عن مشاعر الآخاء والود ويبكي على صفات وأخلاق صديقه الحميدة، ويصور أثر وقع خبر موته عليه، ووصف الخسارة الفادحة بفقدان هذا الصديق.

وذلك في قول الشاعر[1]:

**سَلَامٌ عَلَى الشَّخْصِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَشَا حَبِيبٌ وَفِي سَعْدِ الْوَفَاءِ صَدِيقُ**

**فَلَوْ أَنِّي أُعْطِيتُ حَظِّي لَمَا انْتَأَى وَلَكِنَّ أَحْدَاثَ الزَّمَانِ تَعُوقُ**

**سَأَبْكِيكَ مَفْجُوعًا عَلَيْكَ كَمَا بَكَى أَخَاهُ أَخٌ دَانٍ عَلَيْهِ شَفِيقُ**

**فَقَدْ كُنْتَ عِنْدِي وَالْمُدَامَةُ وَالْكَرَى وَمَا بَاعِثُ شَوْقِي وَالْحَبِيبُ يَشُوقُ**

**عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ لَا الْوَجْدُ يَنْقَضِي وَلَا أَنَا مِنْ شَوْقِي إِلَيْكَ أَفِيقُ**[2]

---

[1] هو على بن عبد الرحمن بن سعيد بن محمد بن جودي السعدي، ابو الحسن أصل سلفه من البيرة تفنن في الأدب والنحو والطب، توفى بعد سنة ٥٣٠ هـ.

[2] مطمح الأنفس، ص ٣٦٣

يبدأ الشاعر قصيدته بذكر المرثي له بالسلام والمحبة و يذكره دوما بالخير والمحبة والاخاء والصداقة، فأحداث الزمان تستعصي عليه حظه وتبعده عمن يحبه وقد اختطفه الموت منه وتركه وحيدا، وسيظل الشاعر يبكي عليه دوما كالمفجوع من شده الألم كما يبكي الأخ على أخيه، والسين في (سأبكيك): تقيد التسويف والاستمرار في البكاء والنحيب، ثم يتذكر ذكرياتهم معا عندما كانوا سويا يشربون الخمر وقد غلبهم النعاس، وما استرجاع هذه الذكريات الا لشوق الشاعر له والحبيب يتشوق دائما الى ما يحب، ثم ينهي الشاعر قصيدته بالدعاء له والسلام له، فلا هو يذهب عنه وجده، ولا هو يفيق من شوقه اليه، كلمة (عليك): يخاطب الشاعر المتوفي، ويذكره للدلالة على شدة قربه من قلبه وصدق إحساسه.

والشائع في قصيدة الرثاء هو الدعاء للشخص المتوفي في نهاية القصيدة، ولكننا نجد الشاعر في هذه القصيدة بدأ قصيدته مباشرة بالدعاء للمتوفى وإظهار مشاعر الشوق والحنين له.

وذلك في قول أبو جعفر بن وضاح:

**رَعَـــى اللَّهُ مَهْجُـــورًا صَـــرَمْتُ حِبَالَـــهُ وَشَـــوْقِي بِـــهِ بَـــرِحٌ وَدَمْعِـــيَ سَـــائِحُ**

**تَصَـــبَّرْتُ عَنْـــهُ كَارِهًـــا وَجَعَلْتُـــهُ كَمَـــنْ غَيَّبَتْـــهُ تُرْبَـــةٌ وَصَـــفَائِحُ**[1]

يبدأ الشاعر بالدعاء بالمتوفي، ولقبه (بالمهجور) أي انه مات وأنقطع عن الدنيا وانقطعت أخباره، واصابه الشوق واتعبه ودمعه سال عليه، والفعل (تصبرت): يشير الى الصبر الحافل بالمكاره، أي ان احتمال الصبر قد فاق الحدود، فهو تحت طبقات الأرض ميت والشوق له ما زال جاري.

ونجد أنه عندما تكون تجربة الشاعر ذاتية، مال الشاعر الى اظهار البكاء ومشاعر الحزن ووصف أثر الفراق عليه النفسي والمعنوي عليه.

يقول أبو جعفر ابن وضاح :

---

[1] مطمح الأنفس، ص ٤٠١

**بَكَيْنَـا فَمَـا أَعْشَـتْ دُمُـوعٌ عَـنِ الَّتِـي تَرَامَـتْ بِنَـا الْكَثِيـبَ لِـذِي قَفْـرِ**

**تَخَرَّمَهَـا شَـرْخُ الشَّـبَابِ وَرَبْعُـهُ وَلَـمْ تَـكُ مِـنْ شَـرْخِ الشَّـبَابِ عَلَـى حَـذْرِ**

**أَرَى خِـدْرَكِ الْمَـأْلُوفَ طَاوَلْـتِ هَجْـرَهُ سَـئِمْتِ دَارَهُ أَمْ شُـغِلْتِ عَـنِ الْخِـدْرِ**

**تَرَكْـتِ صَـغِيرَ السِّـنِّ يَعْصِـي دُمُوعَـهُ وَلَا يَبْتَغِـي لِلصَّـبْرِ عَاقِبَـةَ الصَّـبْرِ**[1]

بدأ الشاعر القصيدة بالفعل (بكينا) للجمع: للدلالة على أن البكاء ليس بكاء الشاعر على المرثية لوحده، بل أنه مشاركة وجدانية لهم جميعا، فيصف رحيله سريعا في ريعان شبابه، وان الموت ليس مقصورا على سن معين، ويصف الشاعر مشاعر الالم التي تكشف عن صدق احساسه فقد طال هجره لهم، وسئم من داره، والفعل (تركت): يخاطب المرثي ولده ويعصي دموعه ولا يعرف عاقبة الصبر.

"فالرثاء الخاص يعبر بصدق عن عاطفة ملتهبة التي تتمثل في فقدان شخص عزيز لن يعود مرة ثانية، فالأسى يلتهم قلب الشاعر ويمتلئ بزفرات الأنين والحزن "[2]

**ثانيا: الرثاء الرسمي:**

وقد جاء بكثرة لدى شعراء مطمح الأنفس حيث أنه هو رثاء من لهم السلطة والنفوذ، بمدح صفاتهم الحميدة، واختلاق صفات لهم غير موجودة من باب الرياء والتقرب لهم وكسب ودهم والإشادة بأعمالهم، ومن خصائصه الفتور والضعف، والتكلف لما تحمله الكلمات من تجمل، فهو بعيد تمام البعد عن صدق العاطفة، لأن غرضه الأساسي التكسب والتقرب من الخلفاء وأولى الأمر.

---

[1] المرجع نفسه، ص ٤٠١

[2] د. فاطمة محمد على سليمان، القصيدة الأندلسية في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، كلية الآداب، جامعة الفيوم، ٢٠١٧، ص ١٧٧.

"ويقصد بالرثاء الرسمي رثاء الخلفاء والأمراء ورجال الدولة، وقد أكثر الشعراء من هذا اللون ولكنهم خضعوا فيه غالبا لتوجيه الخلفاء الرسمي، فكان الخلفاء يكلفون الشعراء أحيانا برثاء آبائهم وأقاربهم ولم يكن الشعراء يصدون في نظمه لهذا الرثاء عن عاطفة صادقة، وإنما كانوا ينظمون أداء الواجب واستجابة لأوامر الخلفاء فغلب عليه الفتور والضعف "[١]

وهو الرثاء الخاص بالوزراء والأمراء والقضاء، قائم على المدح والإشادة بالمحاسن وحميد الأخلاق، بعيد عن اظهار الحزن والأسي النابع من القلب، قريب من الصنعة والتكلف.

كما شاركت الطبيعة الشعراء الأندلسيين في مرثيتهم، لتخفيف ما يشعرون به من الآلام الفقد والحرمان، كما انصرف الشعراء في الرثاء الرسمي عن الغرض الأساسي من نظم قصيدة يرثى بها الفقيد، ونجدهم غارقون في مدح صفات الخلفاء وتعدداها والإشادة بالأعمال الصالحة من باب الرياء وكسب الود.

ويقول الشاعر[٢] في رثاء القاضي بن ذكوان[٣]، نجيب ذلك الأوان، في الفتنة، وقد افتن في الآداب:

**ظَنَّنَـــا الَّـــذِي نَـــادَى مُحِقًّـــا بِمَوْتِـــهِ لِعُظْـــمِ الَّـــذِي أَنْجَـــى مِـــنَ الـــرُّزْءِ كَاذِبَـــا**

**وَخِلْنَـــا الصَّـــبَاحَ الطَّلْـــقَ لَـــيْلًا وَإِنَّمَـــا هَبَطْنَـــا خُـــدَارِيًّا مِـــنَ الْحُـــزْنِ كَارِبَـــا**

---

[١] د. فوزي عيسي: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط ١، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص ١٦٧.

[٢] أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي، أبو عامر، وزير كاتب شاعر، استوزره المستظهر ثم المعتد بالله، ومن مؤلفاته: "كشف الدك وايضاح الشك "، "حانوت عطار"، "رسالة التوابع والزوابع"، وقد جمع شارل بيلا شعره في ديوان مطبوع، ولد بن شهيد سنة ٣٨٢ هـ وتوفى سنة ٤٢٦هـ،

[٣] م: أحمد بن ذكوان، وابن ذكوان هو أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله الأموي قاضي الجماعة بقرطبة، ابو العباس، ولد سنة ٣٤٢ هـ، وتوفى سنة ٤١٣هـ,

ثَكَلْنَـــا الـــدُّجَى لَمَّـــا اسْـــتَقَلَّ وَإِنَّنَـــا فَقَـــدْنَاكَ يَـــا خَيْـــرَ الْبَرِيَّـــةِ نَاعِبَـــا

وَمَـــا ذَهَبَـــتْ إِنْ حَصَّـــلَ الْمَـــرْءُ نَفْسَـــهُ وَلَكِنَّمَـــا الْإِسْـــلَامُ أَدْبَـــرَ ذَاهِبَـــا

وَلَمَّـــا أَبَـــى إِلَّا التَّحَمُّـــلَ رَائِحًـــا مَنَحْنَـــاهُ أَعْنَـــاقَ الْكِـــرَامِ رَكَائِبَـــا

يَسِـــيرُ بِـــهِ الـــنَّعْشُ الْأَعَـــزُّ وَحَوْلَـــهُ أَبَاعِـــدُ رَاحُـــوا لِلْمُصَـــابِ أَقَارِبَـــا

عَلَيْـــهِ حَفِيـــفٌ لِلْمَلَائِـــكِ أَقْبَلَـــتْ تُصَـــافِحُ شَـــيْخًا ذَاكِـــرَ اللَّهِ تَائِبَـــا

تَخَـــالُ لَفِيـــفَ النَّـــاسِ حَـــوْلَ ضَـــرِيحِهِ خَلِـــيطَ قَطًـــا وَافَـــى الشَّـــرِيعَةَ هَارِبَـــا

إِذَا مَـــا امْتَـــرَوْا سُـــحْبَ الـــدُّمُوعِ تَفَرَّعَـــتْ فُـــرُوعُ الْبُكَـــا عَـــنْ بَـــارِقِ الْحُـــزْنِ لَاهِبَـــا

فَمَـــنْ ذَا لِفَصْـــلِ الْقَـــوْلِ يَسْـــطَعُ نُـــورُهُ إِذَا نَحْـــنُ نَاوَيْنَـــا الْأَلَـــدَّ الْمُنَاوِبَـــا

وَمَـــنْ ذَا رَبِيـــعُ الْمُسْـــلِمِينَ يَقُـــوتُهُمْ إِذَا النَّـــاسُ شَـــامُوهَا بُرُوقًـــا كَوَاذِبَـــا[1]

يبدأ الشاعر قصيدته بالفعل (ظننا): للجمع أي أن الظن ليس مقصورا عليه، بل انهم ظنوا جميعا بموته، ويصور لنا الشاعر وقع أثر الموت عليه فهو محق بموته، ووقع أثر الموت عليهم كالمصيبة، كما صور لنا الشاعر الطبيعة وهي تشارك معهم همومهم، حيث الصباح الطلق أصبح ليلا من شدة الحزن على موت القاضي، وعندما بكوا بكت سحب السماء وامطرت معلنة حزنها عليه، كما امتزج غرض الرثاء بالمدح، فوجدنا الشاعر الغارق في تصوير حزنه وكربه، يمدح ويشيد بصفات القاضي وهذا يجعل الرثاء غير نابع من أعماق القلب وصدق العاطفة، قريب من التكلف والصنعة، كما صور نعشه وحوله كل قريب وبعيد يأبي عليهم تحملهم نبأ وفاته يخال عليه قبائل شتى حول ضريح موته، فأقبل على نعشه وأقبلت

[1] مطمح الأنفس، ص ١٩٦

الطيور عليه أثناء سيره وكانت تحفهم الملائكة، ولكنه يظل نورا ساطعا لأنه كان يقوت المسلمين وكان يكرم كل من حل عنده.

ثم يكمل حديثه متوجعا عليه:

**فَيَـــا لَهْـــفَ قَلْبِـــيَ آهٍ ذَابَـــتْ حُشَاشَـــتِي مَضَـــى شَـــيْخُنَا الـــدَّفَّاعُ عَنَّـــا النَّوَائِبَـــا**

**وَمَـــاتَ الَّـــذِي غَـــابَ السُّـــرُورُ لِمَوْتِـــهِ فَلَـــيْسَ وَإِنْ طَـــالَ السُّـــرَى مِنْـــهُ آيِبَـــا**

**وَكَـــانَ عَظِيمًـــا يُطْـــرِقُ الْجَمْـــعُ عِنْـــدَهُ وَيَعْنُـــو لَـــهُ رَبُّ الْكَتِيبَـــةِ هَائِبَـــا**

**وَذَا مِقْـــوَلٍ عَضْـــبِ الْغِـــرَارَيْنِ صَـــارِمٍ يَـــرُوحُ بِـــهِ عَـــنْ حَوْمَـــةِ الـــدِّينِ ضَـــارِبَا**

**أَبَـــا حَـــاتِمٍ صَـــبْرَ الْأَدِيـــبِ فَـــإِنَّنِي رَأَيْـــتُ جَمِيـــلَ الصَّـــبْرِ أَحْلَـــى عَوَاقِبَـــا**

**وَمَـــا زِلْـــتُ قَـــدْمًا تُرْهِـــبُ الـــدَّهْرَ سَـــطْوَةً وَصَـــعْبًا بِـــهِ يُعْيِـــي الْخُطُـــوبَ الْمَصَـــاعِبَا**

**سَأَسْـــتَعْتِبُ الْأَيَّـــامَ فِيـــكَ لَعَلَّهَـــا لِصِـــحَّةِ ذَاكَ الْجِسْـــمِ تَطْلُـــبُ طَالِبَـــا**

**لَـــئِنْ أَفَلَـــتْ شَـــمْسُ الْمَكَـــارِمِ عَـــنْكُمُ لَقَـــدْ أَسْـــأَرَتْ بَـــدْرًا لَهَـــا وَكَوَاكِبَـــا**[1]

يستكمل الشاعر حديثه متوجعا باكيا على موت القاضي، وفي قوله(يلهف قلبي): نداء للإظهار الحسرة والألم لفراق القاضي، وكلمة (آه): للدلالة على شدة الالم الذي يعانيه الشاعر لفراقه، فقد مات شيخهم وكبيرهم الذي كان يدافع عنهم في المصائب، فقد غابت عنهم السرور والبهجة والفرحة بموته، كما يشيد الشاعر بذكر محاسنه وتعدادها، فقد كان عظيم يطرق الجميع داره لكرمه وحسن ضيافته، كما كان

[1] مطمح الأنفس، ص ١٩٦.

قوله حازم صارم لا رجعه فيه، وفي نداءه (أبا حاتم): للدلالة على قربه منه، وشاركت الطبيعة عزائه فقد غابت الشمس، ويختم القصيدة بالنصح عن فوائد الصبر، وان للصبر عواقب، كلمة (عواقب) تؤخذ على الشاعر، لأن كلمة عواقب لتأتي في المصائب، انما الصبر على المكارم من الفضائل فأتت منه غير ملائمة.

كما انصرف الشعراء في الرثاء الرسمي عن الغرض الأساسي وهو الرثاء الى الإغراق في مدح الخلفاء، والخلط بين الرثاء والمدح وجعله الأخير مقدمة لكل مرثية عندهم ومن صور الرثاء الرسمي مدح صفات الخلفاء والوزراء، وتكليف الخلفاء الشعراء أنفسهم برثاء أقاربهم وآبائهم وأبنائهم، فيستجيبوا لهم لأداء الواجب، فغلبت على الأشعار الضعف والفتور.

رثاء الوزير الكاتب أبو جعفر اللمائي:

قال الوزير أبو عامر بن شهيد يرثيه رحمه الله:

أَفِـــي كُـــلِّ عَـــامٍ مَصْـــرَعٌ لِعَظِـــيمِ ... أَصَـــابَ الْمَنَايَـــا حَـــادِثِي وَقَـــدِيمِي

هَـوَى قَمَـرَا قَـيْسِ بْـنِ عِـيلَانَ آنِفًـا ... وَأَوْحَـشَ مِـنْ كَلْـبٍ مَكَـانُ زَعِـيمِ

فَكَيْـفَ لِقَـائِي الْحَادِثَـاتِ إِذَا سَـطَتْ ... وَقَـدْ فَـلَّ سَـيْفِي مِـنْهُمُ وَعَزِيمِـي

وَكَيْـفَ اهْتِـدَائِي فِـي الْخُطُـوبِ إِذَا دَجَـتْ ... وَقَـدْ فَقَـدَتْ عَيْنَـايَ ضَـوْءَ نُجُـومِ

مَضَـى السَّـلَفُ الْوَضَّـاحُ إِلَّا بَقِيَّـةً ... كَغُـرَّةِ مُسْـوَدِّ الْقَمِـيص بَهِـيم

رَمَيْـتُ بِهَـا الْآفَـاقَ عَنِّـي غَرِيبَـةً ... مُجِيبَـةَ خَفَّـاقِ الضُّـلُوعِ كَظِـيمِ

لِأَبْـدِيَ إِلَـى أَهْـلِ الْحِجَـا مِـنْ بِـوَاطِنِي ... وَأَدْلِـيَ بِعُـذْرٍ فِـي ظَـوَاهِرِ لَـوْمِ

أَنَـا السَّـيْفُ لَـمْ تَتْعَـبْ بِـهِ كَـفُّ ضَـارِبٍ ... صَـرُومٌ إِذَا صَـادَفْتُ كَـفَّ صَـرُومِ

سَـعَيْتُ بِـأَحْرَارِ الرِّجَـالِ فَخَـانَنِي ... رِجَـالٌ وَلَـمْ أَنْجِـدْ بِجِـدِّ عَظِـيمِ

وَضَـــيَّعَنِي الْأَمْـــلَاكُ بَـــدْءًا وَعَـــوْدَةً فَضِـــعْتُ بِـــدَارٍ مِـــنْهُمْ وَحَـــرِيمِ

فَـــإِنْ رَكِبَـــتْ مِنِّـــي اللَّيَـــالِي هَضِـــيمَةً فَقَبْلِـــيَ مَـــا كَـــانَ اهْتِضَـــامُ تَمِـــيمِ

مَـــا وَأَبِـــي الْأَيَّـــامِ لَـــوْلَا اعْتِـــدَاؤُهَا ظَـــاهَرَتْ فِـــي سَـــادَاتِهَا بِقُـــرُومِ

وَقَارَعْـــتُ مَـــنْ يَبْغِـــي قِرَاعِـــي مِـــنْهُمُ بِـــأَحْلَامِ بَطْـــشٍ أَوْ بِطَـــيْشِ حُلُـــومِ

أَحَلّـــوا مَلَامِـــى لَا أَبَـــا لِأَبِـــيهِمُ وَإِنِّـــى وَرَبِّ الْمَجْـــدِ غَيْـــرُ مَلُـــومِ

فَـــلَا تَعْـــذِلُونِي إِنْ وَلِهْـــتُ فَإِنَّهَـــا عَلَاقَـــةَ حَبْـــرٍ لَا عَلَاقَـــةَ رِيـــمِ

أَبَـــا عَبْـــدَةَ إِنَّـــا عَـــذَرْنَاكَ عِنْـــدَمَا رَجَعْنَـــا وَغَادَرْنَـــاكَ غَيْـــرَ ذَمِـــيمِ

أَنَخْـــذِلُ مَـــنْ كُنَّـــا نَـــرُودُ بِأَرْضِـــهِ وَنَكْـــرَعُ مِنْـــهُ فِـــي إِنَـــاءِ عُلُـــومِ

وَيَجْلُـــو الْعَمَـــى عَنَّـــا بِـــأَنْوَارِ رَأْيِـــهِ إِذَا أَظْلَمَـــتْ ظَلْمَـــاءُ ذَاتُ غُيُـــومِ

كَأَنَّـــكَ لَـــمْ تُلْقِـــحْ بِـــرِيحٍ مِـــنَ الْحِجَـــى عَقَـــائِمَ أَفْكَـــارٍ بِغَيْـــرِ عَقِـــيمِ

وَلَـــمْ نَعْتَمِـــدْ مُغْنَـــاكَ غَـــدْوًا وَلَـــمْ نَـــزُرْ رَوَاحًـــا لِفَصْـــلِ الْحُكْـــمِ دَارَ حَكِـــيمِ[1]

يرثي الشاعر الوزير أبو جعفر، يبدأ القصيدة بقوله (أفي كل عام): يوحي بتجدد تلك النازلة والكرب وتكرار الموت عليهم، فقد لعب الزمن دورا هاما في تشكيل القصيدة، ويتساءل في البيت الثاني عن كيفية اهتدائه لسماعه نبأ وفاته، ويبين أثر الفراق عليه حيث فقدت عيناه ضوء النجوم من شدة حزنه وكربه، وقد شاركت الطبيعة معهم حزنهم، فقد أظلمت السماء وأزادت الغيوم والهموم، فقد كان لهم خير حكيم وخير مصلح، واستخدم الشاعر الأفعال الماضية (أصاب، مضى): للدلالة على أن الموت مصيبة إِذَا حلت على شخص قضت عليه ليس فيه رجعة، واستخدم

[1] مطمح الأنفس، ص ٢١٥.

ضمير المتكلم (فقدت، ركبت): للدلالة على سيطرت صوت الشاعر في القصيدة، ونجد في قوله (يجلو العمى عنا بأنوار رأيه): رثاء يتخلله مدح وهذا كان شائع في الرثاء الرسمي، فرأيه كان سراجا منيرا لهم لما امتاز به الوزير الراحل من الحكمة.

والباء في (بأنوار): تفيد الملازمة، أي ملازمة النور لرأيه وحكمته فيه.

**ثالثًا: رثاء النفس:**

وهو أن يرثي الشاعر نفسه بنفسه، ويتوجع ويتألم لدنو أجله بسبب الشيخوخة والشيب أو المرض، أو بغرض التوبة من ذنب وطلب العفو والسماح من الله، أو قد يكون طلب التأبين على قربه ويوصى صديقه بالدعاء له وتذكره دائما أو قد يكون بسبب زهد الشاعر في الدنيا، او ظهور نزعة دينية لديه، أو وصف مرضه وقرب أجله، فيطلب العفو والسماح وغفران الذنوب من الله.

يقول ابن شهيد الأشجعي[1]:

**وَلَمَّـــا رَأَيْـــتُ الْعَـــيْشَ لَـــوًى بِرَأْسِـــهِ ... وَأَيْقَنْـــتُ أَنَّ الْمَـــوْتَ لَا شَـــكَّ لَاحِقِـــي**

**تَمَنَّيْـــتُ أَنِّـــي سَـــاكِنٌ فِـــي عَبَـــاءَةٍ ... بِـــأَعْلَى مَهَـــبِّ الـــرِّيحِ فِـــي رَأْسِ شَـــاهِقِ**

**أَرُدُّ سَـــقِيطَ الظِّـــلِّ فِـــي فَضْـــلِ عِيشَـــتِي ... وَحِيـــدًا وَأَحْسُـــو الْمَـــاءَ ثَنْـــيَ الْمَعَـــالِقِ**

**خَلِيلِـــيَّ مَـــنْ رَامَ الْمَنِيَّـــةَ مَـــرَّةً ... فَقَـــدْ رُمْتُهَـــا خَمْسِـــينَ قَوْلَـــةَ صَـــادِقِ**

**كَـــأَنِّي وَقَـــدْ حَـــانَ ارْتِحَـــالِي لَـــمْ أَفُـــزْ ... قَـــدِيمًا مِـــنَ الـــدُّنْيَا بِلَمْحَـــةِ بَـــارِقِ**

**فَمَـــنْ مُبْلِـــغٌ عَنِّـــي ابْـــنَ حَـــزْمٍ وَكَـــانَ لِـــي ... يَـــدًا فِـــي مُلِمَّـــاتِي وَعِنْـــدَ مَضَـــايِقِي**

**عَلَيْـــكَ سَـــلَامُ اللَّهِ إِنِّـــي مُفَـــارِقٌ ... وَحَسْـــبُكَ زَادًا مِـــنْ حَبِيـــبٍ مُفَـــارِقِ[1]**

---

[1] أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي، أبو عامر، وزير كاتب شاعر، استوزره المستظهر ثم المعتد بالله، ومن مؤلفاته: "كشف الدك وايضاح الشك "، "حانوت عطار"، "رسالة التوابع والزوابع"، وقد جمع شارل بيلا شعره في ديوان مطبوع، ولد بن شهيد سنة ٣٨٢ هـ وتوفى سنة ٤٢٦هـ

يقول الشاعر هذه الأبيات في وصف مرضه، طالبا العفو من الله، فالعيش في الحياة الدنيا أصبح شاق عليه، بسبب مرضه، فكان على يقين أنه سيموت قريبا، وفي صورة استعارية في قوله (الموت لاحقي): فقد صور الموت بشخص يصارعه، فتمني أن يسكن داخل عباءته، فمهما هبت رياح المرض واشتدت فهو ساكن وصامد، فهو يعيش وحيدا ويصف حاله ضعيفا حتى يكاد يشرب مائه بمعلقة مائلة ذات عوج، ويخاطب صديقه وينصحه بشأن موته، الذي يزوره كل مرة، بأنه قد حان وقت رحيله ووداعه ولم يفز من الدنيا بشيء، فالوداع والرحيل يأتي بلمح البرق، فهو حتما سيفارق الدنيا ويرحل عنها، ويظهر في القصيدة صوت الشاعر من خلال ضمير المتكلم (رأيت، أيقنت، تمنيت) فنراه جسد مشاعر اليأس والحزن التي سيطرت عليه، وانتظاره لمصيره المحتوم وهو الموت، وبين لفظتي (مفارق)، (مفارق): جناس تام يعطي جرسا موسيقا تطرب له الآذان، ونجد تكراره لحرف العطف الواو في (وأيقنت / وأحسو / وقد/وكان/ وعند) لعبت دورا في تشكيل القصيدة وإضفاء عليها طابع الحزن والوحدة أثناء مرضه.

وقد تبنى قصيدة الرثاء بالبدء بمخاطبة الشاعر صديق يتخيله في ذهنه وهذه من عادة شعراء المشرق يوصيه بعدم الامتناع عن ذكره، كما يطلب من الله أن يغفر له ذنبه.

كما يطلب الشاعر على قبره بتأبينه فيقول:

**فَـــلَا تَـــنْسَ تَـــأبِينِي إِذَا مَـــا ذَكَرْتَنِـــي وَتَـــذْكَارُ أَيَّـــامِي وَفَضْـــلِ خَلَائِقِـــي**

**وَحَـــرِّكْ لَـــهُ بِـــاللَّهِ مَهْمَـــا ذَكَرْتَنِـــي إِذَا غَيَّبُـــونِي كُـــلَّ سَـــهْمِ غَرَانِـــقِ**

**عَسَـى هَـامَتِي فِـي الْقَبْـرِ تَسْـمَعُ بَعْضَـهُ بِتَرْجِيـــعِ شَـــادٍ أَوْ بِتَطْرِيـــبِ طَـــارِقِ**

**فَلِـــي فِـــي ادِّكَـــارِي بَعْـــدَ مَـــوْتِي رَاحَـــةٌ فَـــلَا تَمْنَعُوهَـــا لِـــي عُلَالَـــةَ رَاهِـــقِ**

**وَإِنِّـــي لَأَرْجُـــو اللَّهَ فِيمَـــا تَقَـــدَّمَتْ ذُنُـــوبِي بِـــهِ مِمَّـــا دَرَى مِـــنْ حَقَـــائِقِ**

---

(١) مطمح الأنفس، ص ٢٠١.

يخاطب الشاعر صديق يتخيله في ذهنه وهذه من عادة شعراء المشرق، ويطلب منه تأبينه على قبره وهذا شائع من قبل الشعراء الأندلسيين، وأن يتذكر ايامهم معا، ويتذكر له أيضا أخلاقه الفاضلة، فمهما ذكره قومه بسوء، يطلب منه أن يحافظ على وفائه له ويحسن ذكراه، فعندما يزوره في قبره سوف يشعر به عندما يطرب سماعهم، ويوصي الا يمنعوا عنه اذكاره، ففيها راحته، ثم يطلب من الله أن يغفر له ذنبه ويعفو عنه، وتكرار كلمة (ذكرتني) مرتين، للدلالة على المعنى الذي يريد إيصاله في ذهن المتلقي ويطلب منهم ألا ينشغلوا عنه.

ورثاء النفس هو أصدق وأكثر قربا للنفس البشرية

ويقول الشاعر جعفر ابن عثمان المصحفي في رثاء نفسه:

**أُجَـــارِي الزَّمَـــانَ عَلَـــى حَالِـــهِ مُجَـــازَاةَ نَفْسِـــي لِأَنْفَاسِـــهَا**

**إِذَا نَفَـــسٌ صَـــاعِدٌ شَـــفَّهَا تَـــوَارَتْ بِـــهِ دُونَ جُلَّاسِـــهَا**

**وَإِنْ عَكَفَـــتْ نَكْبَـــةٌ لِلزَّمَـــانِ عَطَفْـــتُ بِنَفْسِـــي عَلَـــى رَأْسِـــهَا**[1]

وفي ختام هذا المبحث وجدنا أن الرثاء في كتاب مطمح الأنفس، قائم على العلاقات الطيبة بين الشعراء، فنجد شاعر يرثي والدة شاعر آخر مقرب منه ويطلب من الله له الصبر ويمدح صفاتها الحسنة، ووجدنا أيضا أن بنية قصيدة الرثاء في الكتاب قائمة على البدء بذكر السلام والمحبة للمرثي، ثم ذكره بالخير ووصف مشاعر الآخاء والصداقة وكيف اختطفه الموت وتركه وحيدا والبكاء عليه متفجعا على وفاته، وتذكر ذكرياتهم معا، ثم الشوق اليه، والدعاء له بالسلام في نهاية القصيدة، وقد تبني قصيدة الرثاء بالبدء بالفعل للدلالة على الجمع والمشاركة الجماعية في الحزن والفقد، ووصف الرحيل ووصف مشاعر الألم ومخاطبة المرثي وتوجيه الكلام له مباشرة وهذا شائع في اشعار الأندلسيين، والحديث عن عاقبة الصبر على الموت وفي نهاية القصيدة نجده يدعى للمرثي وينصح أهله بالصبر،

[1] مطمح الأنفس، ص ١٥٨

وقد تبني القصيدة بالبدء بظرف الزمان، فقد يلعب الزمان دورا هاما في تشكيل القصيدة ثم بيان أثر الفراق عليه ومشاركة الطبيعة الحزن، ووجدنا ايضا أن الغالب على الرثاء الرسمي هو المدح فهو رثاء يتخلله مدح صفات الخلفاء، ووجدنا رثاء النفس كيف يرثي الشاعر حاله في مرضه واحساسه بقرب أجله وطلب العفو والسمح من الله ومنه أيضا طلب التأبين على القبور، فجاء فن الرثاء صورة صادقة عبرت عن أحداث المجتمع الأندلسي يروى قصصا حقيقة معبرة عن الفقد، ويشرح الأثر، فجاءتنا الصورة عن الرثاء متكاملة.

كما أننا نجد رثاء الذات هو اقرب الرثاء من ناحية صدق العاطفة النابعة عن قرب الأجل، وطلب العفو والسماح من الله، وقد قل الرثاء الخاص في كتاب مطمح الأنفس، فلا نجد رثاء الأب لأبنه، ولا رثاء الأخ، ولا رثاء الأقارب المقربين، ولكنه جاء بمثابة رثاء المقربون كرثاء الصديق لصديقه، ورثاء الشعراء مجاملة لبعضهم البعض، كرثاء أم شاعر توفي، او رثاء صديق، او رثاء حبيب، بينما كثر الرثاء الرسمي وجاء على هيئة رثاء القضاة والوزراء على شكل مقطوعات طويلة، وكانت بعيدة عن العاطفة المتوهجة، فهو رثاء قائم على المجاملات، والتقرب من أولى الأمر، اختلط فيه المدح مع الرثاء فلابد من كل شاعر أن يذكر محاسن مرثيه، يعدد صفاته، وعلى الرغم من تقيد الشعراء الأندلسيين بقصيدة الرثاء في المشرق في بدء القصائد بمشاعر الحزن والألم ثم الدخول في الرثاء ومدح الصفات، وجدنا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل أنهم جعلوا من الرثاء حوارا قصصيا وخطابا مؤثرا دار بينهم وبين مرثيهم، فجاء رثاء الخلفاء والشعراء والعلماء في كتاب مطمح الأنفس بمثابة تأريخ وترجمة لحياتهم.

**المصادر والمراجع**

**اولا: مصدر الدراسة :**

(١) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس ، ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق الدكتور محمد على شوابكة ، ط١ ، بيروت شار سوريا ، بناية صمدي وصالحة ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .

**ثانيا : الدواوين :**

(١) ديوان ابن الحداد ( أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف ت ٤٨٠ هـ ، جمع وتحقيق : د. يوسف على طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ١، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م .

(٢) ديوان ابن شهيد ( أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد ت ٤٢٦ هـ

(٣) ديوان ابن عبد ربه ( أبو مر أحمد بن عبد ربه القرطبي ت ٣٢٨ هـ .

(٤) ديوان المعتمد بن عباد : ت : د. أحمد بدوي ، د. حامد عبد المجيد أشرف عليه وراجعه : د.طه حسين ، ط٣ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠ م

**قائمة المراجع :**

(١)شوقي ضيف : الرثاء ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة

(٢)شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والأمارات ، ط٦ ، ٢٠١٧ ، دار المعارف ، القاهرة

(٣)عبد الرشيد عبد العزيز سالم : شعر الرثاء العربي واستنهاض الهمم ، ط١ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٢

(٤)د.على الغريب محمد الشناوي : القصيدة الأندلسية في كتاب اعلام مالقة ، ط١ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ٢٠٠٣

(٥)د.فاطمة محمد على سليمان : القصيدة الأندلسية في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، كلية الآداب ، جامعة الفيوم ، ٢٠١٧

(٦)د.محمد دياب : شعر الطليق المرواني : الدار الثقافية ، القاهرة ، ٢٠١٧